قَدْكَ منها بيان مفخرةٍ واءٍ ذر قصوراً بها عن التعدادِ
بتْ قريرا فإن ذكراك فينا أجْدرُ الذكرياتِ بالاخلادِ

خليل مطران

حافظ

فى رأي مطران

— ١ —

بين الشعراء والنقاد اليوم معركة حادة عنيفة غير حازمة ، تجاوزت الانصاف والفن وعدت على الخلق ، وخرجت من هذه الدائرة السامية دائرة التهذيب والابتكار إلى نوع من المهاترة يضر الشعر والفن ويفسد الصلة بين الادباء جميعاً : فكل فريق سيء الظن بصاحبه يتهمه بالعجز والقصور ، هؤلاء النقاد لا يكادون يعرفون للشعراء كفاية أو جهدا ، ويقولون ليس عندنا شعراء يستطيعون الاضطلاع بما تستلزمه النهضة الادبية المعاصرة ويسدون فراغ هؤلاء الذين أدركهم الموت وكانوا أبراراً سابقين .

وأمّا الشعراء فلا يبالون بهذا كله ، فهؤلاء النقاد جاحدون وهم أعجز عن تقدير الشعر ، وتذوّق جماله ، واستبطان دخائله وأسراره ، وقد خرجوا من ذلك بقاعدة عدّوها أو حسبوها جديدة: هى ألا ينقد الشاعر إلا شاعر .

على أنك إذا نظرت إلى رأى الشعراء بعضهم فى بعض رأيت شراً مستطيراً ، واختلافاً كبيراً ، وسوء ظن يربى على مابين الشعراء والنقاد . فالمسألة فى الحقيقة ليست مسألة شعراء ونقاد وانما هى مسألة طبيعية ، ونتيجة لازمة لاختلاف الأذواق والشخصيات ، ولاختلاف طرائق النظر والتفكير ، ثم هى بعد ذلك مسألة هذه الصلات الاجتماعية والخاصة التى تصل بين الناس جميعاً ، وتعرض روابطهم الى الاستقامة أو الاضطراب . فاذا نحن حمدنا هذه الشخصيات ونزعتها الى الاستقلال فقد يكون حمدنا أكثر إذا وُجِّه هذا الخلاف إلى الشعر وخدمته دون هذا التنابذ والمهاترة .

وأما نقد الشاعر صاحبه وعرفانه ذلك فهي مسألة قديمة عرفها السابقون وحاولوا صرف النحاة واللغويين والعلماء الخلص عن نقد الشعر ، وقالوا لا يعرف الشعر الا من دفع به الى مضايقه ، فالناقد فى الأصل نصف شاعر بل ويجب أن يكون نصفه شاعراً ونصفه الآخر عالماً . فالشاعر وحده يحتكم إلى ذوقه ومذهبه الفنى وفى هذا جور واعتساف ، والعالم وحده يحتكم إلى الافكار والمذاهب العلمية فيفسد الفن وجماله. ولكن الناقد يجمع بين الذوق الفنى الجميل والمقياس العلمى السديد ، ويلائم بين هذين العنصرين ويكوّن منهما أحكامه التفسيرية او الابتكارية الخالقة .

وكل ما يعنيني اليوم من هذا الصراع أنه دليل الحياة والشعور بالحاجة الى نهضة إن لم تصل بالشعر الى أسمى درجاته فهى محاولة تضع الاسس وترسم السبيل الى مستقبل وطيد زاهر .

— ٢ —

ومع ذلك فأحبّ أن أقرب من جماعة الشعراء ، ولكنه قرب لا يفيدهم شيئاً ، أحب أن أعرض عليهم صورة من نقد شاعر لشاعر ، بل من نقد شاعر زعيم ، نقد مطران لحافظ ، ولا يظن هؤلاء الشعراء أن هذا فناء فى مذهبهم واعتراف بتفاصيله. كلا ، فليس مطران عندى شاعراً من هذا النوع الذى يشيع بين شعراء العربية قديماً وحديثاً . وإنما هو طراز جديد فى الشعر العربى ، هو شاعر العقل والشعور جميعاً ، وقلما تجد هذا النوع بين السابقين وإن حاول بعض المعاصرين أن يكونه . مطران فيما أرى عالم وأديب معاً ، وهو إذن ناقد ، وإذا كان لا بد من الافصاح فيجب أن نلاحظ أن هذا الثالوث المقدس — الذى جمع بين حافظ وشوقى ومطران على زعامة الشعر الحديث — ليس متحدّ المزاج والطبيعة وإن تجانس فى الدرجة والتسامى ، فهم شعراء كبار يتفقون فى ذلك ولكنهم يتمايزون بعد ذلك فى كل شىء أو فى أغلب الأشياء . فاذا كان لحافظ سرعة البديهة ، وحلاوة النفس ، وصفاء العبارة وترديد آمال مصر وآلامها ، فان لشوقى براعة الغناء ، وقوة الاسلوب ، وحسن التصوير ، وإن لمطران صحة الفكرة . ووحدة القصيدة ، وصدق النظرة ، والثقافة الشاملة وسماحة الطبع وسمو الأخلاق ، ومعنى هذا للمرة الثانية أن مطران ليس شاعراً فقط أو هو شاعر من هذا الطراز المثقف ، هو عالم وأديب : صياغة بديعة ، وشعور صادق ، وخيال ، خيال عام ، وأفكار سديدة . فاذا التمست عند حافظ وشوقى الجمال الفنى فالتمسه عند مطران والتمس معه اللذة

العقلية ، وغذاء الفكر والعاطفة أو غذاء النفس جمعاء . مطران هو الخطوة الموفقة السابقة أمام شكرى وأبى شادى والعقاد والمازنى وأضرابهم من شعراء الثقافة الحديثة .

أليس مطران شاعرا فذاً فى بابه ؟ ألست أنا محقا فى اعتبار مرثيته دراسة نقدية لزميله فوق أنها قطعة شعرية باكية ؟

الحق ان هذه المرثية مظهر صادق لرأى مطران فى حافظ فهى تاريخه أو ترجمته ، ومظهر صادق لشعور مطران نحو حافظ فهى تمثل عاطفة الشاعر نحو الشاعر ، وهى عاطفة مزدوجة فيها حزن الصداقة الشخصية ، وحزن الرابطة الأدبية ، . . فكيف أرّخ مطران زميله ؟

— ٣ —

لدارسى الشعر مذاهب ثلاثة مشهورة . ومن العجيب أن مطران يلمّ بها جميعاً فى قصيدته ويوفق فى ذلك توفيقاً بارعاً ، نعم هو توفيق بارع يجمع بين هذا التقرير العلمى الصحيح ، وهذا التصوير الفنى المؤثر الجميل .

فهذا المذهب التاريخى الذى يعدّ الشعر مرآة الحياة الاجتماعية ، ولابد لفهم الشعر من فهم هذه الحياة ، ومذهب السير ذلك الذى يعد الشعر مرآة لحياة الشاعر ، ولابد إذاً من درس سيرة الشاعر حتى يفهم شعره فهماً صحيحاً ، ثم هذا المذهب الفنى الخالص الذى يقف عند النصوص الشعرية ويتبين خواصها الفنية شارحاً معللا. ولكل مذهب أنصاره ومحاسنه ، وهى كلها فى رأى مطران — وأنا أوافقه على ذلك — لازمة لفهم الشعر ونقده نقداً منصفاً سديداً ، وقد فعل . نعم فعل وزاد — كما قلت لك — حرارة العاطفة وبراعة التصوير .

ولست الآن أدرس مطران حتى أقف عند فنه وشخصيته، ولكنى أدرس حافظاً فى رأى مطران ، فلا سرّ فى طريقى وليعذرنى القراء إذا عرضت لمطران فيما مضى أو فيما يلى فذلك لانى أحببت أن أشركه مع النقاد أو أضعه حيث يجب أن يوضع فى إستواء تفكيره واكتمال نواحيه ، وذلك لأنى قد اتفق معه فى الآراء عن حافظ وقد أخالفه . فهو إذاً مميزى وزميلى فى هذه الدارسة ، بل هو أساسها كما علمت . وقد عرض لى أن أذهب هذا المذهب المدرسى فأرتب القصيدة ترتيباً علميا ، أبدأ بهذه القطع التى تدرس العصر ، وأثنى بسيرة الشاعر ، ثم بفنه . . .

ولكننى اعتبرتُ ذلك عدواناً على أسلوب مطران فاحتفظتُ به ووقفتُ عند استعراض أبواب المرثية وتسجيل ما يعنّ من الملاحظات .

أمّا مطلع القصيدة فعاطفة عامة تنتظم حزن الشرق العربى لوفاة حافظ وتمثل الرابطة اللغوية ، وهو مطلع لا يوازيه فى صدق العاطفه إلا مطلع رثاء مطران لشوقى على فرق بين عاطفة الأخوة هناك وعمومها هنا ، فتلك عاطفة حادة باكية ، وهذه عاطفة جليلة حزينة ، فحافظ له هذه المنزلة الأدبية فى بلاد الشرق العربى التى فقدُه مأتمُها جميعاً ، ثم نرى شخصية حافظ الفكهة المحبوبة تأتلف حولها القلوب وترى فى أفاكيه حافظ مسرة النفس ، ومرارة النقد ، وخالص الموعظة ، ولكن مطران أشد الناس حزناً لفقد صديقه ، واللغة ذهبت بموته بعد أصحابه السابقين الذين يمتاز منهم بحسن اختيار الألفاظ وضوع العبارات وحسن التأليف ومراعاة مقتضى الحال .

حافظ وفىٌّ كريمٌ ذو مروءة وصراحة ، مخلص لأمته :

بعد أن كان حاكياً وهو يشدو جعلته المحكىَّ بين الشوادى

نشأ حافظ يمرن على قرض الشعر معتمداً على الطبع والمرانة جميعاً ، يوفّق أحياناً ويخفق حيناً ، ولكن الشعر لا يقوت صاحبه فاذا بحافظ بين الجنود فى السودان يضيق بقيود العسكرية الصورية التى يدرب مصر فيها أعاديها ، وينفس عن نفسه بالقريض ، ولكن فتنة تثور فى الجيش ويبعد حافظ على أثرها من السودان . وتضيق به سبل العيش ويشمله البؤس ويحترق بين فقر مدقع وعزة نفس عزيزة فيبكى ويكون شعره باكياً حزيناً يصور نفسه المتألمة :

باكياً شجوَه ترنّ قوافيه رنينَ النبال فى الأكباد

ثم تكون الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل . وإذا بنهضة تكافح عدوين : أجنبيٌّ محتلٌّ ، وداخلىٌّ هو ذلك الهوان الذى طال مداه على البلاد فصار كالطبع الذى يصعب انتزاعه ، والذي يستلزم من الزعماء صبراً ودهاءً وبراعةً وإيماناً وطيداً . وكانت حوادث دنشواى وعسف الانجليز وازدراؤهم بالمصريين ، فكان حافظ لسان مصر الغاضبة الحانقة ، وحافظ موتور لنفسه ولمصر معه .

وكثرت فى تلك الايام السعايات وكثر المارقون ، ولكن الخلصاء بزعامة مصطفى

صبروا وصابروا وبثوا فى الأمة روح التآلف والتعارف ، وامتدت آثاره إلى اليوم، فكان حافظ شاعر مصر الناهضة .

— ٤ —

أرأيت أن مطران استطاع أن يؤرخ عصر حافظ وأن يلم بسيرة حافظ ، وأن يدرس فن حافظ فيجمع بذلك بين هذه المذاهب الدراسية الثلاث ؟

نعم استطاع أن يبين أهم الحوادث السياسية والاجتماعية الاولى التى أثرت فى شعر حافظ وانشأته ولا سيما شعره فى الشباب والرجولة ، ثم صور لنا حياة حافظ وبؤسه ، ومزاجه وخلقه وطريقة تكوينه الشعرى . ثم هذه الاطوار الشعرية التى امتاز بها شاعر مصر الكبير ناشئاً ، وشاكياً ، ومترجماً روح مصر ونهضتها الاولى ، وأخيراً هذا الرثاء الحار الجميل .

وأنا لا أحب أن أزيد على ذلك شيئاً ، إلا أن هنالك أموراً ثلاثة يجب الوقوف عندها :

فأولها أن مطران لم يتناول جميع الحوادث التى تتصل بشعر حافظ ، ولم يذكر كل الرجال الذين اتصلوا به وبشعره كالشيخ محمد عبده والشيخ أبى خطوة وغيرهما . ولا بأس فى ذلك فما كان الشعر مجال الاستقصاء الشديد وإلا فسد وذهب جماله ، وحسب الشاعر الإلمام والايماء وكفى .

وثانيها أن مطران لم يستكمل حياة صاحبه واعتذر بالقافية ، وفى رأيى أن ليس هذا عذراً كافياً ولا سيما لدى مطران فيستطيع تغيير القافية ويستطيع تكرار القافية . . ويستطيع غير هذا . . ولكن هل أستطيع أن أرد ذلك إلى أسباب أخرى سوى ما ذكر ؟ أيكون السبب أن مطران لم يشأ التورط فى هذه الفترة الأخيرة التى تضطرب حولها السياسة الحاضرة والتى قد يكون أكثرها سراً مكتوماً ؟ مهما يكن من الأمر فعذر مطران هنا ضعيف .

وثالثها أمر يتعلق بفن مطران نفسه ، والحق أنه فن عجيب : فيه كما قلت لك شخصية علمية أدبية مزدوجة لم تتوافر لغير مطران بهذه السعة والقوة والجمال ، وأرجو أن أفرغ لدرس مطران نفسه فى فرصة أخرى .

رحم الله حافظاً ومد فى عمر مطران !

أحمد الشايب